

الغزل في شعر وضاح اليمن الرؤيا والضم

أ.د. أحمد مقبل محمد المنصوري

توطئة:

أود في هذه التوطئة التي أراها مهمة لكل من يتناول وضاح اليمن وشعره بالدراسة والتحليل أن أقف أمام حقيقة وجود (وضاح اليمن)؛ لكونها كانت مثار تساؤلات لدى بعض الدارسين، لاسيما حين تناوله عميد الأدب العربي (طه حسين) في حديث له من أحاديث الأربعاء، الذي شكك في وجوده، وبجراحة لم يقدم عليها الأقدمون أنفسهم في عصر التدوين، الذين كانوا قريبي العهد بوضاح وعصره؛ وهم من هم في الحرص على النقل، وفي التمحيص، وفي الدقة، ولقد ذكره وذكروا نسبه وقصته، ابتداء من القرن الثالث الهجري منذ ابن حبيب المتوفى ٥٢٤هـ في كتابه أسماء المغتالين، ومرورا بأبي الفرج الأصفهاني المتوفى ٥٣٥هـ في كتابه الأغاني، ووصولاً إلى القرن السادس حيث ابن عساكر المتوفى ٥٧١هـ ثم السابع مع ابن خلكان ٦٨١هـ في فييات الأعيان، فالثامن مع فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي ٧٦٤هـ فالتاسع مع ابن بردى تغري ت ٨٧٤هـ في كتابه النجوم الزاهرة ١.

ثم لا يمكن بحال من الأحوال أن يتداول الناس قصص شخصية وهمية، يتداولون أشعارها، وهي معدومة الوجود، أو تكون من اصطناع الرواة دون أن نجد في زمنها، أو بعد زمنها بقليل، من يتحدث عن ذلك أو يشير إليه؛ والأقدمون - كما ذكرنا - هم منهم في الدقة والتمحيص، ولا يمكن أن يغيين عن بالهم أمر زيف كهذا لو كان مزيفاً !!

ثم إن استحداث شخصية من العدم، ونسج الأحاديث حول نسبها وأصلها وقصصها وأشعارها ليس بالأمر الهين أو السهل. بل هو أسرع ما يكون إلى الفضح والتشهير - في مجتمع كان يأنف الكذب والتزوير - منه إلى الكتمان أو غض الطرف عن الحقائق!!

وعند العودة إلى الأقدمين فإننا نجد أن اختلافهم كان حول سبب مقتله، أو نسبه، أو نجدهم يصلون بعد اختلافهم إلى رأي راجح حول أصوله اليمنية، كما ذكر ذلك أبو الفرج الأصفهاني، مثلاً، حين ذكر اسم وضاح مرة أمام أبي عبيدة معمر بن المثنى والذي كان يظن أن وضاحاً فارسياً بسبب وجود اسم داذ في أجداده، لكنه أقحم حين ردوا عليه بأن عبد كلال

اسم يمان وأبو جمد كنية يمانية، وهما من ضمن تسلسل نسبه، ولا يعني ورود اسم تسمى على أسماء الفرس الذين عاشوا في اليمن النسبة إليهم، مثل من سمي بأسماء الحبشة من قبل، فهل يُنسب إلى الحبشة؟ أو ذكر إشارات تفرد بها بعض الرواة أو القاصين حول قصة موته أكانت في صندوق إثر عشقه لأم البنين (زوجة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك) أم كانت قتلاً صريحاً؟

ومعلوم أن مثل هذا الاختلاف في الآراء لا يمكن له أن ينفي حقيقة وجوده، بل هو أمر يتكرر مع غالبية الشعراء القدماء حتى عصور بني العباس وما تلاهم. ومن بين الشعراء المشهورين، قبل المغمورين، لم يختلف في نسبه وفي حكايات

متباينة عنه ؟؟ وهل مجرد الاختلاف حول شاعر من الشعراء يفضي إلى الشك في حقيقة وجوده؟ لا نظن ذلك، ولو ظننا - مجرد الظن - كما ظن عميد الأدب العربي مع وضاح وسواه - لكان ذلك مدعاة للحكم على شعرائنا وشعرهم بالنحل والتزوير والبهتان، وهذه ورطة للأسف لا نود أن نقع في شركها كما وقع فيها دون تريت وترو عميد الأدب العربي، وبموجبها نال حظاً واسعاً من الردود والرفض والسخط؛ لأن مثل ذلك الشك لا يستقيم مع المنطق والعقل؛ إذ لماذا ظهر من يقول شعراً وينسبه إلى وضاح؟؟ أليس من المنطق أن ينسبه لنفسه بدلاً من نسبه لشاعر آخر، هذا لو سلمنا أن وضاحاً شخصية وهمية

الفنون التصاقا بالنفس وأقواها أثرا
وتخيلا بما يحمله من صدق في التجربة
ورشاقة في التعبير) ١٢ وموضوعه المرأة.
ولقد تحدّدت أشكال الغزل بالحسي
الصريح، وبالغزل المعنوي العفيف.

وفي العصر الأموي نجد اللوين: الغزل
الصريح - الذي ينشد اللذة الحسية -
ويمثله الشعراء: عمر بن أبي ربيعة
والعرجي والأحوص ١٢ ، والغزل العذري
العفيف - الذي ينشد اللذة الروحية -
المنسوب إلى بني عذرة ، ومن سار على
نهجهم من الشعراء، ومنهم: مجنون
ليلي وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم،
وقد اتسموا بالعشق الطاهر العفيف، ولم
يخرجوا عن حدود الطهر والعفة ١٤.

وبقي لون ثالث ظل حاضرا ولو بلون
أقل مع اللوين السابقين، وهو ذلك الغزل
الذي يأتي مقدمة للقصائد ١٥.

ويتقدم شاعرنا وضّاح اليمن في كونه
قد نسج في شعره اللوين معا : العفيف
الطاهر البريء والحسي الصريح، وبرع
فيهما معا: فمرة يبدو كجميل بثينة، ومرة
ثانية كعمر بن أبي ربيعة، ولعل السر في
ذلك - وهو ما لمح بعض الدارسين ١٦ -
يعود إلى أنه عاش تجربتين أسفرتا عن
اللوين بامتياز؛ ذلك أن حبه الطفولي
البريء لابنة الحي في صنعاء (روضة)
وما طرأ على هذه العلاقة من صعاب
وحرمان زواج، ثم انتهاء أمرها إلى المساة
بمرضها، قد هيا للون العفيف البريء،
وأما سفره إلى الحجاز والشام فقد هيا
لمغامرات العشق وجراته ومن ثم أسفر عن
غزله الحسي الحضري الجريء.

علاوة على اللون التقليدي الثالث
- على نحو أقل - حين كان يقدّم به بعض

توهمه بعضهم في أصله الفارسي، وقد
كان الأوائل أسرع إلى بطلانه، كخالد بن
كلثوم حين ذكر ذلك بقوله: (كان وضّاح
اليمن من أجمل العرب... فمات أبوه وهو
طفل، فانتقلت أمه إلى أهلها، وانقضت
عدتها، فتزوجت رجلا من أهلها من أولاد
الفرس، وشب وضّاح في حجر زوج أمه.
فجاء عمه وجدته أم أبيه، ومعهم جماعة
من أهل بيته من حمير... فادّعى زوج أمه
أنه ولده فحاكموه فيه، وأقاموا البينة أنه
ولد على فراش إسماعيل بن عبد كلال
أبيه، فحكّم به الحاكم لهم... وقال له:
أذهب فأنت وضّاح اليمن لا من أتباع
ذي يزن (يعني الفرس)... فعلقت به هذه
الكلمة منذ يومئذ فلقّب وضّاح اليمن) ٧
وقد عُرف بقصتين شهيرتين في
حياته انعكسا على شعره وطفيا عليه؛
الأولى عشقه لروضة من صنعاء اليمن ٨
ثم حرمانه الزواج بها وزواجها بغيره، ثم
مرضها وموتها، والثانية قصة عشقه لأم
البنين ٩ زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك
في الحجاز والشام وانتهاء قصته هذه
بدفنه في صندوق داخل القصر، أو قتله.

وأما وفاته فهي ما بين ٩٠هـ أو ٩٢هـ
، وقد حددها صاحب النجوم الزاهرة
ب١٠٥٩٢هـ ولم يقف المؤرخون بدقة أمام سن
ولادته ١١.

الغزل في شعر وضّاح اليمن الرويا

والفن:

أولاً - الرويا:

معلوم لدى الدارسين أن الغزل
موضوع عريق في شعرنا العربي منذ أول
فحول العربية امرئ القيس، وحتى لحظتنا
هذه لدى أحدث الشعراء، وهو من (أكثر

نُسب إليها الشعر، على زعم عميد الأدب
العربي ٩٩

والحقيقة أنني لا أريد الخوض في
مناقشة هذا الزعم، ولا سرد الردود
المنطقية التي نهض بها رجال الأدب منذ
أن طُرِح في بداياته؛ لأن بطلان نظرية
الشك التي تبناها عميد الأدب - سواء مع
وضّاح هنا أو مع الشعر الجاهلي عامة -
بات من المسلمات التي يدركها مختصو
الأدب ودارسوه، وكل منتمف مطلع على
ماضي الشعر وتاريخه القديم، ولأن ما ذُكر
من نقاش وردود حول ذلك الزعم كان من
الإقناع والتكرار إلى الحد الذي أرى الملائمة
في إعادة سرده هنا؛

ولا بد من الانصراف عن ذلك إلى
إعطاء نبذة عن وضّاح اليمن، وعن تجاربه
العاطفية التي كان لها أثر عميق في إذكاء
نار شاعريته في جانب الغزل - موضوع
دراستنا هنا - وتأجج لهيب جوانحه.

فمن هو وضّاح اليمن؟ وما قصصه
وتجاربه ٩٩؟

نبذة تعريفية عن وضّاح اليمن:

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن
عبد كلال الحميري الخولاني ٥ ويسلسل
أبو الفرج الأصفهاني نسبه اليمني، فهو
(من آل خولان بن عمرو بن قيس بن
معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل
بن الغوث بن قطن بن غريب بن زهير بن
أيمن بن الهيميسع بن العرنجج وهو حمير
بن سبأ بن يشجب بن يعرب وهو المرعف
بن قحطان) ٦

وأما أمه فهي فارسية، وقد تزوجت
بعد موت أبيه إسماعيل بفارسي ونشأ طفلا
تحت رعايته وتربيته، وهذا هو الوهم الذي

قصائده. لكن وقفنا عند رؤيته ستكتفي باللونين: العفيف والصريح.

أ- الغزل العفيف:

تشكل معشوقة الطفولة الأولى، (روضة) التي نشأت في حي من أحياء صنعاء (شُعب) صلب هذا اللون من الغزل عند وضّاح، وبه يتشابه إلى حدّ كبير مع شعراء الغزل العذري العفيف، جميل بيّنة وسواه، بل تتشابه قصته معها مع قصص العذريين؛ ففي الأغانى بعد تسلسل السند: (...حدثنا الأصمعي، عن الخليل بن أحمد، قال: كان وضّاح يهوى امرأة من كندة يقال لها روضة فلما اشتهر أمره معها خطبها فلم يُزوجها، وُزوجت غيره) ١٧ ثم مرضت بعد ذلك بالجذام وحرز عليها كثيرًا ١٨.

لاستغرب إذاً بعد ذلك أن نجد وضّاحا منبعًا ثرا لمشاعر متأججة من الوجد والحرمان والحسرة والألم، ولانستغرب حين نجد تجربة العذريين تجد لها فيه تربة تشنجر عليها ومعها الأشواق والأحلام المتكسرة والغصون الظامئة إلى لقاء.

ننصت إليه فنجده يقرر كالعذريين بأنه حبه لروضة لا يبلى، فهي مناه، وتقامد السنين يزيده قوة وجدّة، ويستتكر على العذال حبه لها وقد رافقه منذ الطفولة وحتى المشيب، ثم إن مقامها عنده مقام اليد اليمنى من اليد الشمال، ويختم تأكيده على استبداد حبه به بأنه لم يعد مالكا لنفسه وقلبه منذ أن عرفها، وأما بعدها فموت، وقربها جنون وذهول، قائلًا:

كل حبّ إذا استطال سيبلى

وهوى روضة المنى غير بالي

لم يزده تقادم العهد إلا

جِدّة عندنا وحسن احتلالٍ

أيها العاذلون كيف عتابي

بعد ما شاب مفرقي وقذالي؟

كيف عدّلي على التي هي مني

بمكان اليمين أخت الشمال؟

والذي أحرموا له وأحلوا

بمنى صبح عاشرات الليلي

ماملكت الهوى ولا النفس مني

منذ علّقتها فكيف احتيالي؟

إن نأت كان نأيها الموت صرفا

أو دنت لي فثم يبدو خيالي ١٩

ونجده يشكو ذهاب عقله بسبب

حبها، وقد أصبح رهينة بين يديها ويمنحها

مقاليد التصرف بحياته التي لا معنى لها

بدونها:

رهينك وضّاح ذهب بعقله

فإن شئت فاحبيه وإن شئت فاقتلي ٢٠

ونجده يقسم بأن روضة هي أمنيته

الأبدية ولا سواها:

لو قيل يا وضّاح قم

فاختر لنفسك أو تمنّ

لم أعد روضة والذي

ساق الحجيج له البدن ٢١

وحبها لا نظير له حين يقارنه بالشاق

وعشقهم:

لم أجد حبها يشاكله الحبّ

ولا وجدنا كوجد الرجال ٢٢

ثم إن مرورها من أمامه فقط لمجرد

المرور والنظرة نحوها دون أدنى كلمة

يجعله ذلك شاردا حائرًا مسمرًا لا حراك

له، ثم أورثه هذا الموقف سهرا وسهادا

ودموعا طوال ليله:

ولقيتها تمشي بأبطح مرة

بخلخال ويحّلة أكباش

فظللت معمودا وبنت مسهدا

ودموع عيني في الرداء غواشي ٢٣

ويشكو إليها فرط الجوى والصبابة

من حبها الذي استبد به ووصل حتى

مشاش العظم:

ياروض حبك سلّ جسمي وانتحي

في العظم حتى قد بلغت مشاشي ٢٤

وعلى غرار العذريين أيضا يجرى هذا

الحوار الناصح للقلب الذي شفه الوجد

وأقسمه الحب ثم لا يلبث أن يلتفت إلى

محبوبته معاتبًا ومبررا أن ماجرى له هو

من أجلها:

يا أيها القلب بعض ماتجّد

قد يعشق المرء ثم يتنّد

قد يكتّم المرء حبه حقا

وهو عميدٌ وقلبه كمدّ

ماذا تريد من فتى غزل

قد شفه السقم فيك والسهد ٢٥

وإذا ما رحل إلى الشام وفارق روضة

صنعاء وديارها، فإن الشوق ومكابدة

الصبابة ينفصانه، ويعذبان قلبه، ويظل

لهجا بذكر روضة التي سكنت قلبه، ولا

يمكن لبعده الدار أو قربها أن تسيه إياها:

أبت بالشام نفسي أن تطيبا × تذكرت

المنازل والحبيبا

تذكرت المنازل من شعوب

وحيا أصبحوا قطعوا شعوبا

سبوا قلبي فحل بحيث حلوا

ويعظم إن دعوا ألا يجيبا

ألا ليت الرياح لنا رسول

إليكم إن شمالا أو جنوبا

فتأتبكم بما قلنا سريعا

ويبلغنا الذي قلتم قريبا

ألا ياروض قد عذبت قلبي

فأصبح من تذكركم كئيبا

بطرفها، فيفهم لغة الطرف، ثم تبدي مخاوفها عليه؛ فالحراس حول دارها متأهبون للنبيل من أي غريب، لكنه يبدي لها شجاعته وفروسيته، واستعداده لمواجهة كل خطر، وهو بالسيف لا يخاف الأعداء. يقول سارداً كل ذلك:

إذا قلت يوماً نؤليني تبسّمت

وقالت لعمر الله لو أنه اقتصد

سموت إليها بعد ما نام بعلمها

وقد وسّدت الكف في ثلثة الصرد

أشارت بظرف العين أهلاً ومرحباً

ستعطي الذي تهوي على رغم من حسد

أُتست تري من حولنا من عدونا

وكل غلام شامخ الأنف قد مرد

فقلت لها إني امرؤ فاعلمنه

إذا ما أخذت السيف لم أحفل العدۓۓ

وفي موضع آخر يصور منعها،

مما يستحيل الوصول إليها، لكنها تعلمه

درسا في الحيلة والخداع، كي يصل إليها

أمناء، وذلك باصطناع صداقة مضللة

لأعمامها وأخوتها. يقول:

قالت: فزرننا قلت كيف أزوركهم؟

وأنا امرؤ لخروج سرك خاشي

قالت فكان لعمومتي سلماً معاً

والطف لأخوتي الذين تماشي

فتزورنا معهم زيارة آمن

والسر ياوضح ليس بفاشي

ويجاهر في الإلحاح ويصطنع لها

الأدلة والحجج؛ كيما يظفر ببغيته في قوله:

إذا قلت يوماً نؤليني تبسّمت

وقالت معاذ الله من فعل محرم

فما نؤلت حتى تضرعت عندها

وأعلمتها ما رخص الله في اللمم؛

ولا يلبث أن يعدد محاسن المشوقة

الفاطنة، وقد وقف أمام الجارية حباة

قالت ألا لا تلجن دارنا

إن أبانا رجل غائر

قلت فإني طالب غرة

منة وسيضي صارم باتر

قالت فإن القصر من دوننا

قلت فإني فوقه ظاهر

قالت فإن البحر من دوننا

قلت فإني سابح ماهر

قالت فحولني إخوة سبعة

قلت فإني غالب قاهر

قالت فليث رابض بيننا

قلت فإني أسد عاقر

قالت لقد أعبيتنا حجة

فأت إذا ما هجع السامر

وأسقط علينا كسقوط الندى

ثلثة لا ناه ولا زاجر

وفي موقف آخر نجد حديثه عن زيارة

له إلى محبوبته التي بادرته عند اللقاء

بالتحية والترحيب، وقد استقبلته بجرأة

وشجاعة، ثم بكنه حين فارقها، وذلك

يتمثل تماماً مع مغامرات عمر بن أبي

ربيعة، رصدها في شعره. يقول وضّاح:

حيي التي أقصى فؤادك حلت

علمت بأنك عاشق فأدلت

وإذا رأتك تقلقت أحشاؤها

شوقاً إليك فأكثرت وأقلت

وإذا دخلت فأغلق أبوابها

غرم الغيور حجابها فاعتلت

وإذا خرجت بكت عليك صباة

حتى تبلى دموعها ما بليت

إن كنت ياوضح زرت فمرحباً

رحبت عليك بلادنا وأظلت

وتنداح دائرة المغامرات؛ فهو الذي

يفامر ذات مساء إلى مبيت معشوقته

المتزوجة وقد نام بعلمها، فتشير إليه

ورقضي هواك وكنت جدلاً

وأبدي في مفارقي المشيبا

أما ينسبك روضة شحط دار

ولا قرب إذا كانت قريبا

إن الملاحظ من خلال هذه الشواهد

أن الملمح العفيف في غزل وضّاح، هو الأكثر

طفياناً والأكثر صدقاً، ونشعر معه بالوفاء

والصدق والمكابدة والعذاب، والأمر هنا

لا يكاد يختلف شيئاً عن مكابدات شعراء

الغزل العذري العفيف، لكن الفارق بين

هؤلاء ووضّاح، هو أن الأخير أصابه اليأس

ووقع أسير معشوقات آخر، ولكن مع كل

ذلك فقد ظل حبه القديم الميؤوس منه لا

يفارق أحشاءه.

ب- الغزل الصريح:

عُرف هذا اللون من الغزل، منذ

العصر الجاهلي^{٢٧}، وازدهر في العصر

الأموي مع عمر بن أبي ربيعة والعرجي

والأحوص. وأما وضّاح اليماني فلا يخلو

ديوانه من تجارب فيها ملامح واضحة

للغزل الصريح، يتطابق في هذه النماذج

مع عمر بن أبي ربيعة^{٢٨}، ولا غرابة في

مثل هذا التشابه بينهما؛ فهما قد عاشا

عصراً واحداً وكانا واحداً كانت المرأة فيه

قد عرفت قدراً من الحرية والبوح والجرأة

أنداك في المجتمع الحجازي.

إن أول حوارية لوضّاح اليماني تجسد

هذا الضرب من الغزل، وتحقق له التفرّد في

فتح هذا المجال؛ لكونها - بحسب الباحثين

- تشكل نواة الشعر التمثيلي^{٢٩} وفيها سرد

لمغامراته، مع دراما شائقة وحوار أبدي فيه

قوة الحجة مع الإلحاح في الطلب لينتهي

إلى تصديق المشوقة بمنطقه وقوة الإلحاح

ومن ثم الطاعة والتسليم له:

قائلاً:

تبلت حياية قلبه

بالدل والشكل الأنيقُ

وبعين أحور يرتعي

سقط الكئيب من العقيقُ

مكحولة بالسحر تنسي

نشوة الخمر العتيقُ

هيفاء إن هي أقبلت

لاحت كطالعة الشروقُ

والردف مثل نقا تلبد

فهو زحلق زلوقُ ه٣٥

إن ملامح الرؤيا للمرأة المتغزل بها

هنا تتضح في كونها منبعاً للسحر والفتنة

الحسية الظاهرة، ولذلك تعددت أسماء

المتغزل بهن هنا مثلما هو حاصل مع تعدد

معشوقات شعراء الغزل الصريح، ٣٦، ثم

نجده يسرد مغامراته بأسلوب قصصي،

يتجلى فيه الحوار الذي أبدع فيه مع

معشوقاته، ويميل إلى وصفهن وصفا يقوم

على الحس والغريزة لا على عفة القلب

والنفس، كما نجده يستبطن مشاعر المرأة

وفلقها عليه، وخوفها عند مغامراته، ثم

اشياقها إليه.

وهذا الملمح في شعر وضّاح جعل

بعض الدارسين يميلون إلى جعله من

رواد المدرسة الحضرية في الحجاز

والشام ٣٧، ومن شعراء الغزل الحسي ٣٨

والحقيقة أنه يبدو كذلك، فهو يتشابه في

شكل هذا الملمح ومضمونه مع عمر بن أبي

ربيعة ورفاهه ولكأنه من مدرستهم، لكن

لا ننسى أنه خاض تجربة عشق أليمة في

الطفولة مع صاحبة الحي (روضة) وذاق

مرارة الحب الحقيقي، ولذلك نشعر عند

الوقوف أمام الملح العنيف في شعره أنه

أكثر صدقا مما أورده من مغامراته في

الشق الثاني من حياته، فلا يتعدى الأمر

أكثر من مسابرة شعراء الحجاز الذين

عاش بينهم، ولكن له خصوصيته عنهم ؛

فهو الغريب المعذب المهوور من عشق سابق

لم ينسه حتى وهو في الشام، والخلاصة أن

فرداته تتجلى في اللونين معا، ولكن درجة

صدقه في اللون العنيف تبدو أكثر حضورا

حين التعمق في مدى ملامستها لشغاف

القلوب.

هناك ملمح غزلي ثالث يظهر في

شعر وضّاح، هو الغزل التقليدي حين يبدأ

بعض قصائده بمقدمة غزلية ثم ينتقل إلى

موضوعه، ولكنه تقليد فني اتبعه ولا يضيف

شيئا جديدا، وقد اكتفت الدراسة

بالملمحين المهمين السابقين.

ثانياً- الفن؛

إن التمعن في الجانب الفني يفضي

بلاشك إلى التسليم بمكانة الشاعر-

أي شاعر- بين أقرانه وسابقه أو

لاحقيه، سواء بما يمتلكه من فرادة، أو ما

قد يجني على نفسه فيه من التقليد.

ولعل وضّاح اليماني كان شاعرا فنانا

يولي جملة الشعرية القدر الكبير من

الجودة والسبك وروعة الخيال، وبهذا

يكون قد حقق لنفسه الفرادة بين أقرانه

القدماء.

وأرى أنه من الأجدر هنا الوقوف

أمام ملامح الجدة عنده، وترك ما كان قد

نسجه وقتاً للراسخ والمتجذّر في أعماقه من

القدماء والمعاصرين له، بحكم ثقافته عن

القدماء ومعايشته لمعاصريه.

يحرص وضّاح في الأغلب على اختيار

فرداته السهلة السلسة العذبة الخفيفة

على الشفاه، ولقد التفت النقاد إلى هذه

الظاهرة في شعره، والحقيقة أنها تعد ميزة

تُحسب لشاعريته، لا دليل ابتدال وإسراف،

مثل قوله من قصيدة مطلعها:

حتّام نكتم حيناً حتّاماً

وعلام نستبقي الدموع علاماً؟

وهو المطلع الذي قال عنه د.عبد

العزیز المقالع ردا على طه حسين الذي عد

السهولة ابتدالاً: (فهو في حد ذاته قصيدة

كاملة، وفيه من روعة الشعر وجمال اللغة

ما يعجز عن شرحه البيان) ٣٩

ونجد النقاد يقفون أمام قوله:

ألا ليت الرياح لنا رسول

إليكم إن شمالاً أو جنوباً

فتأتكم بما قلنا سريعاً

وبيلغنا الذي قلتم قريباً

ألا ياروض قد عذبت قلبي

فأصبح من تذكركم كئيباً

ورققتني هواك وكنت جلدنا

وأبدي في مفارقي المشيباً ٤٠

متعجبين من رقة الأسلوب

وبساطته، وخلوه من أية لفظة متكلفة أو

نايبة ٤١ والحق أن السهولة في الألفاظ

وفي التركيب بادية وواضحة ودالة على

تمكّنه من اختيار ألفاظ قريبة المأخذ سهلة

التلقي وهذه ميزة له في أغلب قصائده.

باستثناء عدد قليل من قصائد كان يبدوها

مقلدا الأقدمين في مقدماتهم.

وملمح فني جدير بالملاحظة في شعر

وضّاح أنه كان متفرداً في اختيار قوافيه

المعبرة المميزة، مع غنائية طاغية، تلحها

في ترص الألفاظ، وبلوغها القافية التي

تشكل أعلى مد للغمّة والصوت، في تراتب

عجائبي بديع، مثل ميميته الممدودة التي

يصرّعها بقوله:

حتّام نكتم حيناً حتّاماً

وبسط المشاكل وحلها، والحرب في كل الجبهات)٤٧ ويشهدون له بهذا النص على الأولوية والابتكار؛ ولكن له شعرا يذهب فيه النقاد إلى الإعجاب أي مذهب ويرون فيه نواة الشعر التمثيلي حين يقول في روضة قالت: (ألا لا تلجن...٤٨) وحين التدقيق في النص فإننا نرى براعة وضّاح تتجلى في جعله الحوار يدور بين طرفين، ثم يحتدم حيث المشوقة تستدعي كل الحجج في سبيل دفعه وبعده عنها خوفا عليه وخشية من وقوع مكروه من مغامراته، ولكنه يضع لكل حجة بطلانا حتى وصل الحوار أقصى مدياته، وهنا تكون العقدة التي تجعل المتلقي يتساءل ما النتيجة؟ بعد عرض كل هذه الحجج من الطرفين عبر الحوار، ويأتي الحل مشفوعا بانتصار حجج المحب الذي غامر من أجل معشوقته، وكانت النتيجة الترحيب به ومباركة مغامراته.!

وفي أكثر من نص لوضّاح كان السرد والحوار يتخلل أطرافه لاسيما ما ذكرناه مع تجاربه الحجازية الشامية٤٩، غير أن النص السابق أشدها وضوحا واكتمالا.

ونظن أن بساطة المفردة اللغوية ورقة التراكيب والأداء ونغمة القوافي الشجية ثم النزعة القصصية وما فيها من الحوارية في شعر وضّاح- كما بينا- هي من أدل الشواهد على فريدة نصه الشعري في جانبه الفني. ولا يتسع المقام لتحليلاته الخيالية من خلال وسائل الصورة التقليدية، وسعة استيعابه لجل بحور الشعر؛ لأن ذلك كان من اهتمام دراسات أخرى٥٠، ولأن درجة تركيز البحث مهتمة بجانبه الفني المتفرد المتميز.

والخلاصة الختامية أننا أمام شاعر

تأثيره في المتلقي.

وسمة أخرى هي (الحوارية والسردية) تظهر في شعر وضّاح، وفيها تتجلى موهبته الفنية وبسبب جنوحه إلى هذه الوسيلة الفنية الفريدة عد في نظرهم مستحقا للسبق في ابتكار نواتها، وتظهر في شعره مكتملة الأركان، سلسلة لا تكلف فيها، وكانت رائيته - التي سبق الوقوف أمامها- هي الأكثر لفتا لانتباه النقاد وتعجبهم من اقتداره في حبكها حبكا دقيقا، يقول:

قالت ألا لا تلجن دارنا

إن أبا نأرجل غائر

قلت فإني طالبُ غرة

منه وسيضي صارم باتر

قالت فإن القصر من دوننا

قلت فإني فوقه ظاهر

قالت فإن البحر من دوننا

قلت فإني سابح ماهر

قالت فحولني إخوة سبعة

قلت فإني غالب قاهر

قالت فليت رابض بيننا

قلت فإني أسد عاقر

قالت لقد أعيينتنا حجة

فأت إذا ما هجع السامر

وأسقط علينا كسقوط الندى

ليلة لا ناه ولا زاجر٤٦

والحوار هنا مرتبط بالسرد؛ فعالم

الشعر لدى وضّاح يندمج مع عالم القص

والحوار، ويحقق للأمرين متطلباتهما

من النجاح، يقول النقاد تعليقا على

النص: (وهذا حوار طويل لم تقع العين

على مثله عند شعرائنا، فقد نسجوا في

مثله، ولكنهم لم يوغلوا ولم يسرفوا، ولم

يخطر لهم أن يخترعوا الأسئلة والأجوبة

وعلام نستبقي الدموع علاما؟

إن الذي بي قد تفاقم واعتلى

ونما وزاد وأورث الأسقاما٤٢

وتبدو القافية الشببية في ذروة رقتها

النغمية الصوتية الشجية مع تزد واضح

في سبكا:

فظللت معمودا وبت مسهدا

ودموع عيني في الرداء عواشي

ياروض حبك سل جسمي وانتحى

في العظم حتى قد بلغت مشاشي٤٣

ويتفنن في سبك قافية النون الساكنة

ذات النغمة والغنة الحزينة الدالة على

التجربة، والمشتبكة مع شرايين أحزانها

ولوعتها:

ياروضة الوضّاح قد

عنيت وضّاح اليمُن

فاسقي خليلك من شرا

ب لم يكدره الدرُن

الريح ريح سفرجل

والطعم طعم سلاف دن٤٤

كما تبدو قافيته التائية ذات توظيف

صوتي ساحر، ينبىء عن شاعرية متمكنة

أصيلة:

حي التي أقصى فؤادك حلت

علمت بأنك عاشق فادلت

وإذا رأتك تقلقت أحشاؤها

شوقا إليك فأكثرت وأقلت

وإذا خرجت بكت عليك صبابة

حتى تبل دموعها ما بلت٤٥

وهكذا هي قوافي وضّاح لها من

العذوبة الصوتية والنغم الشجي، وحسن

التوافق مع التجربة الشيء الكثير، ولا تخلو

قافية من قوافيه من ملمح عجيب، يأخذ

بألبياب السامعين، وينبئ عن اقتدار فني

وموهبة متمكنة من أسرار الشعر، وجوهر

أسلوبه وحسن قافيته والنغم الشجي الذي رافق جلّ قصائده. وبهذا تكون البيئة اليمنية قد أهدت العربية وشعرها - في العصر الأموي- شاعرا مميّزا لا تُخطئه العين.

متطلباتهما وخصائصهما، مع ملاحظة أننا نجد تجربته العذرية الأولى كانت أكثر قربا إلى نفسه، وأصدق تأثيرا فيه. وأما في المجال الفني فقد كان سباقا إلى ابتكار نواة الشعر التمثيلي حين أبدع رأئيته الشهيرة، وتجلّت فيها مقدرته الفنية على السردية والحوار، مع رقة

من البيئة اليمنية في العصر الأموي، أجاد في ألوان الغزل جميعا، وتقرّد بالجمع بين التجريبتين: العفيف والصريح، وأعطى كل تجربة حقها من السبك والفن، في وقت كان شعراء عصره منحازين للون دون الآخر، ويحسبون فيه. أما فرادة وضاح فتتجلى في الجمع بين اللونين وفي تمكنه من

هوامش البحث:

- ١ ينظر ذكر هؤلاء الذين ذكروا وضّاح اليمن وأيضاً سواهم من القدماء: وضّاح اليمن حياته وماتبقى من شعره، صنعة: د. حنّاً جميل حداد، مجلة المورد، بغداد المجلد ١٢، العدد ٢، السنة ١٩٨٤م، ص ١٠٤-١٠٥
- ٢ ينظر: الأغاني ٦/٢١١
- ٣ ينظر: السابق ٦/٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥
- ٤ فيما يتصل بالردود ونقص مزاعمه وشكوكه حول وضّاح اليمن، ينظر: الشعر بين الرؤيا والتشكيل، د. عبد العزيز المقالح، ص ١١٣، ووضّاح اليمن، دراسة في موروته الشعري، د. باسم الياسري، ص ٢٢ وما بعدها.
- ٥ فوات الوفيات، ابن شاعر الكتبي ٢/٢٧٢
- ٦ الأغاني ٦/٢٠٩
- ٧ الأغاني ٦/٢٠٩-٢١٠
- ٨ ينظر: السابق ٢١٢ وما بعدها
- ٩ ينظر: السابق ٢١٨ وما بعدها
- ١٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغرى بردى، ١/٢٩٠
- ١١ ينظر: الأعلام الزركلي ٣/٢٩٩
- ١٢ مقدمة لتصيدة الغزل العربية، د. عبد الحميد جيدة، ص ٧
- ١٣ ينظر: الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، لجنة من الأدباء، ص ٦٢، ومن الدارسين من يسمي الغزل الحسي الصريح بالغزل العمري، ينظر مثلاً: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، ص ٢٨١
- ١٤ ينظر: الغزل في العصر الأموي، د. عفيف نايف حاطوم، ص ١٥٩
- ١٥ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، د. شكري فيصل، ص ٢٦٩
- ١٦ منهم د. باسم الياسري الذي قسم الغزل في شعر وضّاح تبعاً لمراحل حياته، ينظر: وضّاح اليمن دراسه في موروته الشعري، ص ٨٦
- ١٧ الأغاني ٦/٢١٢
- ١٨ السابق ٦/٢١٣
- ١٩ ديوان وضّاح اليمن ٧٤
- ٢٠ السابق ٧٠
- ٢١ ديوان وضّاح اليمن ٩٣
- ٢٢ السابق ٧٣
- ٢٣ السابق ٥٠
- ٢٤ السابق ٥٠
- ٢٥ السابق ٣٩-٤٠
- ٢٦ ديوان وضّاح اليمن ٢١-٢٢
- ٢٧ كامرئ القيس ومغامراته مثلاً والمنخل البشكري أيضاً.
- ٢٨ للمزيد حول التشابه بينهما ينظر: وضّاح اليمن دراسة في موروته الشعري ١١٤
- ٢٩ ينظر: الغزل منذ نشأته حتى عصر صدر الدولة العباسية، ٦٢
- ٣٠ ديوان وضّاح ٤٧
- ٣١ السابق ٢٤

- ٢٢ السابق ٤٢ وما بعدها
- ٢٣ السابق ٥٠
- ٢٤ السابق ٨٧
- ٢٥ ديوان وضّاح ٦٦
- ٢٦ ممن عددهن في شعره: روضة- أم البنين- حبابة- هند- سلمى- ليلي- أثيلا... للمزيد ينظر: وضّاح اليماني دراسة في موروثه الشعري، ص ١٠٠ وما بعدها.
- ٢٧ ينظر: الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، ص ٦٢
- ٢٨ ينظر: وضّاح اليماني دراسة في موروثه الشعري، ص ٩٦
- ٢٩ الشعر بين الرؤيا والتشكيل، د. عبدالعزيز المقالح ص ١٤٠
- ٤٠ السابق ٢١
- ٤١ الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، ص ٦٤
- ٤٢ ديوان وضّاح ٨٢
- ٤٣ السابق ٥٠
- ٤٤ السابق ٩٢
- ٤٥ ديوان وضّاح ٣٤
- ٤٦ ديوان وضّاح ٤٧
- ٤٧ الغزل منذ نشأته ٦٤
- ٤٨ السابق ٦٢
- ٤٩ ينظر: الديوان ص: ٥٠-٨٦ وشواهد الغزل الصريح في البحث.
- ٥٠ كدراسة وضّاح اليماني وموروثه الشعري.

المصادر والمراجع:

١ - الكتب:

١. الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٣٩٦هـ، دار العلم للملايين، ط: ١٥، ٢٠٠٢م.
٢. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار العودة بيروت، دار إحياء التراث العربي، د(ط.ت).
٣. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، د. شكري فيصل، دار العلم للملايين-بيروت، ط: ٧، ١٩٨٦م
٤. ديوان وضّاح اليماني، جمعه ووقدم له وشرحه: د. محمد خير البقاعي، دار صادر- بيروت، ط: ١، ١٩٩٦م.
٥. الشعر بين الرؤيا والتشكيل، د. عبدالعزيز المقالح، دار العودة- بيروت، ط: ١، ١٩٨١م.
٦. الغزل في العصر الأموي، د. عفيف نايف حاطوم، دار صادر- بيروت، ط: ٢، ٢٠٠٨م.
٧. الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، لجنة من أدباء الأقطار العربية، دار المعارف- مصر، ط: ٢، د.ت.
٨. فوات الوفيات، ابن شاکر الكتبي، ٧٦٤هـ، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر-بيروت، ط: ١، ١٩٧٤م.
٩. مقدمة لتقصيدة الغزل العربية، د. عبد الحميد جيدة، دار العلوم العربية-بيروت، ط: ١، ١٩٩٢م.
١٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تفردي بردي، ٨٧٤هـ، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، د(ط.ت).

٢ - المجلات:

- ١- وضّاح اليماني حياته وماتبقى من شعره، صنعة د. حنّا جميل حداد، مجلة المورد، بغداد-العراق، المجلد ١٢، العدد ٢، السنة ١٩٨٤م.